حول عوامل تدهور الحضارة الإسلاميّة

عماد الدين خليل*

قبل المُضيّ لاستقصاء وتحليل عوامل تدهور الحضارة الإسلاميّة، لابدّ من تأكيد جملة من الملاحظات الضروريّة بهذا الخصوص.

وأولى هذه الملاحظات هي أن التدهور لا يعني ـ بالضرورة ـ السقوط النهائي، والانسحاب من الميدان، على الأقل بالنسبة لحضارة ـ كالحضارة الإسلامية ـ تستمد مقوماتها في المنشأ والصيرورة من مرتكزات هذا الدين متمثلة بكتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ اللذين يتضمنان شبكة الشروط المناسبة والمحفزة للفعل الحضاري، بخلاف العديد من الحضارات الأخرى التي اختفت ـ تماماً ـ عوامل أو شروط نشوئها، وأصبح مستحيلاً استعادة قدرتها على الفعل كرة أخرى. فالذي يتعرض للتدهور بالنسبة للحضارة الإسلامية هو الفعل الحضاري نفسه، وليس أصوله العقديّة بطبيعة الحال.

والملاحظة **الثانية** هي أن التدهور لا يحدث فجأة، أو عبر فترات زمنية قصيرة، وإنما تتجمع روافده من هنا وهناك خلال أزمان متطاولة قد تستغرق ـ في أغلب الأحيان ـ القرون الطوال. هذا إلى أن التدهور لا ينفرد به عامل واحد، وإنما هو وليد جملة من العوامل التي يتداخل بعضها مع البعض الآخر بحيث يصعب ـ أحياناً ـ فك الارتباط بينها من أجل تبيّن الحجم الحقيقي لكل منها.

إن ظاهرة التدهور الحضاريّ تتشكل ببطء وعلى مكث، وتسهم في صنعها عوامل

* دكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة عين شمس بالقاهرة 1968م؛ أستاذ بكلية التربية بجامعة الموصل، ومدير المتحف الحضاري بالموصل (العراق).

ومؤثرات شتى: عقديّة وسياسيّة وإداريّة واقتصاديّة واجتماعيّة وجغرافيّة وأخلاقيّة... إلخ. ويمكننا ـ في ضوء ذلك ـ أن نضع أيدينا على حشود السلبيات المدمرة التي يمكن أن تتمخض ـ على سبيل المثال ـ عن أية تجربة سياسية أو إدارية تلتقي في قطبيها: القيادة الظالمة والقاعدة الساكنة، أو أية ممارسة اجتماعيّة يتقابل فيها ـ بشكل حاد ـ الترف والحرمان، أو أي مجتمع يغفل عن أهدافه العقديّة الأساسيّة التي قام عليها، ولأجلها، وتفشو فيه الممارسات غير الأخلاقية الهابطة، أو أية حقبة يغيب فيها التوازن بين الثنائيات التي ينطوي عليها الوجود الحضاري... إلخ.

هذه الحشود التي تبدأ بجزئيات وتفاصيل يومية صغيرة ومتقطعة ومستعصية على الرؤية والضبط والتحديد، ولكنها تتجمع شيئاً فشيئاً فما تلبث أن تشكّل تيارات خطيرة جارفة تدمر في طريقها كل شيء، وتوقف كل نشاط فعّال، وتصيب بالتفكك والاضمحلال كل إنجاز أو إبداع.

إن منحنى الإنجاز الحضاري، بمفهومه الشامل، يرتبط بهذه المسائل جميعاً، وحيثما تراكمت وطغت السلبيات المتمخضة عن هذه المسلّمات، كفت طاقة الإنسان والجماعة عن مواصلة صعود المنحنى وآل الأمر إلى الهبوط والتدهور.

إن التفسير الأحادي لسقوط الحضارات، أو تدهورها، أي رد الظاهرة إلى عامل أو مؤثر واحد، كذلك الذي اعتمدته المثالية، أو الماديّة التاريخيّة، أو التفسير الاقتصاديّ، أو الجغرافيّ، أو العرقيّ... إلخ. إنما هو تقليد فكريّ عتيق عفا عليه الزمن، ولابد من الاستعاضة عنه بالتفسير الشمولي الذي يستقصي العوامل والمؤثرات جميعاً، وهو أقرب التفاسير للتصور الإسلامي الذي يضع الأمور كافة في مكانها الحقّ.

أما الملاحظة **الثالثة،** فهي أن الحضارات كافة، بما فيها الإسلامية، عرضة لتحديات التدهور والانهيار بمجرّد غياب شروط الفعل الحضاريّ، أو فقدانها الحد الأدنى من التوتر المطلوب، وليس ثمة حصانة إلهية مسبقة لهذه الحضارة أو تلك بسبب نزوعها الديني أو الإيماني. فإن استمرارية الحضارة رهن بما يصنعه أبناؤها أنفسهم في ضوء جملة من الضوابط والمعايير والعوامل التي إذا أُسِيء التعامل معها سيقت الحضارة إلى

مصيرها المحتوم. فليس ثمة في سنن الله في الخلق ونواميسه في العالم محاباة أو مداجاة، وحاشاه، وإنما هي الأسباب التي تقود إلى نتائجها المنطقية العادلة.

في سورة آل عمران التي تتحدث عن هزيمة المسلمين في معركة أحد (3 هـ) ترد الآيات: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ(138) وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(139) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(140)﴾ (آل عمران).

إن القرآن الكريم يعرض في هذا المقطع ذي المغزى التاريخيّ العميق - الذي ترد فيه كلمات ذات علاقة وثيقة بالموضوع مثل: سنن، مداولة، تمحيص - قاعدة أساسية في مسألة تدهور أو سقوط الدول والحضارات. فهو يقرر - ابتداءً - عدم ديمومة أي منها ولا يستثني المسلمين: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ وقد قال: (بين الناس) بمعنى عموم هذه السنّة التي لا محيص عنها والتي تقوم - بلا ريب - على أسبابها ومقدماتها في صميم الفعل البشري نفسه.

إن القرآن الكريم يعرض لمبدأ (المداولة) بوصفه فعلاً ديناميًّا يستهدف تمحيص الجماعات البشريّة، وإثارة الصراع الدائم بينها، الأمر الذي يتمخض عن تحريك الفعل التاريخيّ، وإيجاد التحديات المستمرة أمام المنتمين إلى هذا المذهب أو ذاك.

والمداولة لا تجيء في كتاب الله بصيغة حتمية مقفلة ونزوع مترع بالتشاؤم كما هو الحال في العديد من المذاهب الوضعية. لكنها ـ على العكس ـ توحي بالحركة الدائمة، والتجدد، والأمل، وتقرر أن التاريخ ليس حكراً على أحد، ومن ثَمَّ فلا مبرر لليأس والهزيمة، فَمَنْ هُم في القمة الآن، ستنزل بهم حركة الزمن إلى الحضيض، ومن هم في القاع ستصعد بهم الحركة نفسها من خلال فعلهم وحركتهم واختيارهم إلى القمة. إن المداولة القرآنيّة تحمل شروط إيجابيتها التاريخيّة كافة: حركة العالم المستمرة، وتمخض الصراع الفعال، وديمومة الأمل البشري الذي يرفض الحزن والهوان: ﴿وَلاَ

تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى الأشكال أو الصيغ التي يقدمها القرآن عن "العقاب" أو "السقوط" بسبب ارتباطها بالموضوع الذي نتحدث عنه. ويجب أن نلاحظ أن العلاقة بين التعبيرين وثيقة، إذ أن سقوط أية تجربة لن يجيء إلاّ بمثابة عقاب إلهي مباشر، أو غير مباشر عن طريق السنن التاريخيّة التي تعمل من خلال الإنسان والجماعة بسبب نكول الأخيرة عن أداء دورها المطلوب وتملصها من مسؤولية الاستخلاف ومطالبه الأساسية.

وهذا العقاب، أو السقوط، بمفهومهما الشامل، لا يجيئان إلاّ بعد أن تكون الجماعة قد استنفذت مبررات استمرارها، ومن ثَمَّ فإن أية ضربة توجه إليها تكون كافية لإزاحتها من مواقعها وفسح الطريق أمام الجماعات الأكثر فاعلية وفقاً للمفهوم القرآني للمداولة.

وهكذا قد تجيء هذه الضربة على شكل غزو خارجي، أو عصيان داخلي، أو اصطراع طبقي، كما أنها قد تجيء بصيغة كارثة طبيعية قاسية تفوق في تحديها قدرة الجماعة المفككة على الرد والصمود: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ(65)﴾ (الأنعام)، ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ(97) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ(98)﴾ (الأعراف).

وليس بالضرورة أن يتمخض العقاب أو السقوط عن إبادة نهائية للجماعة أو تصفيّة جسديّة لا تبقي لها أثراً، كما كان الحال مع عدد من الأقوام البائدة، إنما هو التمزيق والتفكيك والتشتت الذي يتسبب في إرغام هذه الجماعة أو تلك على التنازل عن مركزها القيادي، والتراجع إلى الخطوط الخلفية لكي تمارس التبعية للجماعات الأقوى، بعد أن كانت متبوعة مطاعة: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ(133)﴾ (الأنعام)، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ

تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ(57)﴾ (هود).

وبسبب من واقعية القرآن وتأكيده المسؤولية البشرية، فإنه يخاطب الجماعة المسلمة نفسها، كما يخاطب أية جماعة مؤمنة، بأنها ستلقى المصير نفسه بمجرّد تخليها عن أداء دورها الفعّال في العالم والذي قادها إلى مواقع القيادة والشهادة على الناس: ﴿.. وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ(38)﴾ (محمد) ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(54)﴾ (المائدة).

وتبقى علاقة الاستبدال هذه ماضية إلى أهدافها، تداول الأيام بين الناس، بإرادة الله، وتضع أقواماً وترفع آخرين: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ(26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ(27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ(28) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ(29)﴾ (الدخان).

وهذا الاستبدال التاريخي أو الحضاري الذي يحدثنا عنه القرآن في أكثر من موضع لا يجيء وفق أساليب متعسفة ومباشرة وبمقتضى حدود زمنية صارمة كالأرقام، إنما هي سنن الله في التاريخ وإرادته النافذة من خلال "النواميس" ذاتها التي تؤول إلى تحقّق هذا الهدف الخطير: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ(13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمْ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ(14)﴾ (إبراهيم)، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ(105) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ(106)﴾ (الأنبياء)، ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ(137)﴾ (الأعراف)، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ

الْفَاسِقُونَ(55)﴾ (النور).

ـ انحسار الجهاد وتضاؤل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: منذ قيام دولة الإسلام في المدينة وطيلة عصر القوة والحيوية كان الجهاد على الجبهة الخارجية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الداخل من ضرورات الحياة الإسلاميّة على مستوى الدولة والأمة. ولقد أتاح هذا للنشاط الحضاري ديمومة وازدهاراً؛ إذ كان الجهاد يحمي الأرض ويمنحها إمكانات مضافة تعين الأمة على المزيد من التفوق والعطاء، ليس فقط بوضع المسلم والجماعة في بؤرة الوعي والفاعلية، ولكن بإضافة قوى جديدة على المستويات البشريّة والماديّة والأدبيّة تعين على المزيد من التنامي العقديّ والسياسيّ، والحضاريّ في نهاية الأمر.

وفي الداخل كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سواء نفذته الدولة وأجهزتها المختلفة، أو النخبة متمثلة بالفقهاء والدعاة والمعلمين، أو الأمة نفسها من خلال شرائحها الاجتماعيّة المختلفة، كانت هذه الممارسة التي طالما أكدها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تضع المجتمع المسلم في حالة الالتزام الضروريّة بمطالب هذا الدين، الأمر الذي كان يمنح هذا المجتمع الحماية من التفكك والتسيب، ويدفعه إلى المزيد من الجهد والإحسان مما هو ضروري لكل فاعليّة حضاريّة.

وعلى مدى مساحات واسعة من تاريخ الإسلام، كانت الحركة الجهاديّة ماضية إلى أهدافها، سواء بقيادة السلطات المركزيّة كالراشدين والأمويين والعثمانيين، أو في ظلال السلطات الأقليميّة، كالذي تم ـ على سبيل المثال ـ على أيدي الإمارات والممالك الإسلامية في المشرق والمغرب.

ولكن، وبمرور الوقت كفّت القيادات الإسلامية عن حمل أمانة الجهاد، وتساهلت ـ في الوقت نفسه ـ في متابعة مطالب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترك ذلك لأبناء الأمة وشرائحها المختلفة، يجاهدون، أو يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، على خيارهم، وحيثما أتيحت لهم الفرص الضيقة. ولم يكن الأمر في الحالين يحقق المطلوب في وتائره المناسبة، ولذا كان الجهد ينحسر إلى حدوده الدنيا ـ أحياناً ـ فيفتح

الطريق لتآكل الأرض وعدوان الآخر، من جهة، وللتفكك والفساد الأخلاقي والاجتماعي، من جهة أخرى، الأمر الذي كان يحدث تأثيرات سلبية في غاية الخطورة، على الأداء الحضاريّ الذي راح ينحسر هو الآخر بالضرورة ويتعرض للفوضى والتراخي.

صحيح إن الدعاة والطلبة والتجار والمعلمين مضوا ـ في عصور غياب الدولة الإسلاميّة ـ يجاهدون بالكلمة وينشرون الإسلام في مساحات واسعة من الأرض في آسيا وإفريقيا، وينتقلون بها إلى حالة التحضر بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى، لكن هذا وحده لم يكن يكفي، لأن الذي كان يحدث داخل الأرض الإسلاميّة هو نوع من فك الارتباط، بدرجة أو أخرى، بين قيادات الأمة ومهمات الجهاد ومطالب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما أحدث خنادق عميقة بين الإنسان والعقيدة، تسلل منها التفكك والفساد.

ومن الضروري الإشارة إلى أن انحسار الجهاد وتضاؤل فاعلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يرتبط بتضاؤل وغياب الدافع العقدي الذي يصنع الدول والحضارات، ويمارس ـ في الوقت نفسه ـ دوره الخطير كمعامل يشد مسيرتها، ويوحّد معطياتها، ويزيدها فاعليّة وتركيزاً.

ومعروف لدى فلاسفة التاريخ ودارسي الحضارات، أن الحضارة التي تتمخض عن عقيدة ما، يرتبط مصيرها إلى حد كبير بدوافع نشوئها، فإذا ما ضعف الدافع العقديّ، أو عانت المعطيات الحضاريّة من تقطعه وغيابه، بهذه النسبة أو تلك، فقدت قدرتها على النمو والاستمرار، وتفككت الأواصر التي تشد أجزاءها وتحركها صوب هدفها المرسوم.

ـ **غياب مفهوم التوحيد وتسلل الشرك والصنمية:** التوحيد ـ كما هو معروف ـ عصب التصور الإسلامي للكون والحياة والوجود والإنسان، ونقطة الارتكاز الأساسية فيه، وهو في حالة تألقه وصفائه وحيويته وانطباقه الباهر على المعطى القرآني والنبوي يفعل المعجزات، و"ينقل الجبال عن مواضعها " إذا استعرنا عبارة رجاء جارودي في كتابه **وعود الإسلام**.

فهو بالنسبة لحركة المسلمين في العالم بمثابة الدافع والهدف في الوقت نفسه، وهو بهذا ينطوي على قدرة مدهشة في تنزيل مطالبه وحيثياته على كل مفاصل الحياة الإسلامية ومفرداتها، فيبنيها وفق رؤيته ويصبغها بالصبغة الإلهية التي تميزها عن معطيات الآخرين.

ولقد كانت حضارة الإسلام، في مساحات واسعة منها، انعكاسا أميناً للتوحيد الذي كان يشكلها، وينفخ فيها الروح، ويدفعها للصيرورة والتنامي.

ومن الطبيعي أن أي خلل يصيب مفهوم التوحيد، أو غبار قد يعلق به، يقود بالضرورة إلى حالة السلب المقابلة التي تملأ الفراغ والفجوات بأوهامها وظنونها، وهي في هذه الحالة استدعاء لمختلف صنوف الشرك والصنميّة والطاغوتيّة، التي تبتز الإنسان المسلم وتستلب روحه وقدراته الفعالة، وتهدر حريته وكرامته، وعليه، فإنها تفقده القدرة على الفعل والإبداع والعطاء، كما أنها تفقد الأداء الحضاريّ وحدته وتماسكه وتميزه، وتدفعه إلى المزيد من الترهل والتفكك والسكون.

ليس ثمة خيار، فإما أن تتعامل الدولة والأمة والإنسان مع التوحيد في حالته السوية الواضحة المستقيمة كالسهم، فيما أعطاه القرآن الكريم والسنة النبوية مساحات واسعة، وإما أن تنحدر شيئاً فشيئاً صوب التعدديّة والصنميّة التي هي بمثابة السرطان الذي يبدأ هينا لا يكاد يرى، ثم ما يلبث أن ينتشر كالطفح لكي يفترس عقل الأمة وروحها، وقدراتها.

ولطالما حذر القرآن الكريم والرسول الأمين ﷺ[1] من هذا المصير الذي كان أحد العوامل الأكثر خطورة في عرقلة تنامي الحضارة الإسلامية، ودفعها إلى التآكل والخمود.

"إن أعظم ما أهدته هذه الأمة للناس هو التوحيد، بكل ما يحمل من معان وقيم وأخلاقيات... والمسلم المعاصر الذي تأثر بالغزو الفكري، وصار يستمد تقويمه لنفسه

---

[1] للاطلاع على نصوص الأحاديث الصحيحة حول الموضوع، ينظر: عماد الدين خليل وحسن الرزو، **دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية الشريفة** (عمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1999م)، الفصل الخامس، محور الشرك والوثنية.

من نظرة أوروبا إليه، لن يحس بالقيمة الحقيقية للتوحيد وكونه أعظم هدية تهدى للناس، تهديهم إلى خير الدنيا والآخرة، وتضبط سلوكهم وفكرهم ومشاعرهم بالضوابط الصحيحة، فترفع الإنسان وتكرمه، وتضعه في وضعه اللائق باعتباره (الخليفة) المكلف بعمارة الأرض. لقد كان للتوحيد أثره الواقعي في حياة المسلمين، وفي صنع الحركتين العلميّة والحضاريّة".[2]

لقد كان التوحيد في جوهره مشروعاً حضارياً، قبل أن تخترقه المماحكات العقليّة، بتأثير الفلسفة اليونانيّة وظلالها المسيحيّة، فيغدو جدلاً معلقاً على رفوف الكتب العتيقة، وقبل أن تطمس على ألقه أوهام الصوفيّة الغاليّة وأهواؤها التي أحالته تواجداً وعشقاً لا يكاد يقدر على إنجاز شيء.

إن هويتنا تجاه العالم - من أجل أن نكون بحجم التحدي - هو مفهوم التوحيد، بقدرته المدهشة على صياغة حضارة متميزة بين الحضارات.

- الاستبداد السياسيّ: الاستبداد السياسي هو صنو الظلم الاجتماعي لا يقل عنه خطراً في تدمير طاقات الأمة وإعاقة قدراتها الإبداعية عن مواصلة التنامي والعطاء.

ها هنا نجد أنفسنا - ابتداءً - قبالة ضمانات الشورى والحريّة السياسيّة التي دعا إليها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في العديد من الآيات والأحاديث،[3] والتي كان عصر الرسالة والراشدين بمثابة التحقق التاريخي لمطالبها.

ويكفي أن نتذكر أن سورة بكاملها في كتاب الله سميت بـ "الشورى"، ونتذكر الآية التي تأمر رسول الله ﷺ بأن يشاور أمته في الأمر: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ(159)﴾ (آل عمران)، والآية التي تصف المجتمع المسلم بأن أمره شورى بينه: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ..﴾ (الشورى: 38)، كما يكفي أن نتذكر العديد من ممارسات الرسول ﷺ ومواقفه التي كان يلجأ

---

2 محمد قطب، **كيف نكتب التاريخ الإسلامي** (بيروت: دار المكتب الإسلامي، 1992م)، ص187.

3 انظر: عماد الدين خليل، وحسن الرزو، **دليل التاريخ والحضارة**، الفصل الرابع، محور الأمة والسلطة.

فيها إلى استشارة صحابته الكرام، ويعمل بمشورتهم، لكي تتأكد لنا قيمة الشورى والحريّة في نسيج المعطى التشريعيّ والتاريخيّ لهذا الدين.

وما حدث في عصر الراشدين، والمدى الواسع للحريّة والشورى الذي منحه الخلفاء الأربع — رضي الله عنهم — لأبناء أمتهم أمر معروف. ولقد كان عصر الراشدين هذا، والخبرات الشورية التي شهدها، بدءاً من اختيار الخليفة وانتهاء بطبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، بمثابة مرآة تاريخية لما يجب أن يكون عليه الحال في البيئات الإسلاميّة.

لكن الذي حدث، بدءاً من الحرب الأهلية الأولى، فيما أطلق عليه اسم "الفتنة" بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى، وما تلاها من وقائع وأحداث، مروراً بضرب مبدأ الشورى وإقامة الملك الوراثي العضوض، ووصولاً إلى التفرد بالسلطان بعيداً عن خيارات الأمة ومصالحها الأساسيّة، بل بادعاء نوع من التفويض الإلهي واعتبار الخليفة ظلا لله على الأرض، وغيرها من المعطيات المضادة لروح الإسلام الشوريّة، قاد الأمة إلى طرق مسدودة لم تحظ فيها بالقدر المناسب من الحرية التي تفجّر طاقاتها المبدعة وتعينها على مواصلة العطاء.

وعلى الرغم من أن الانكسارات والمظالم السياسيّة لا ترتبط بشكل مباشر بالصيرورة الحضارية، على الأقل فيما شهدته تجربة المسلمين عبر العصور التي بلغ فيها الازدهار الحضاري قمة منحناه، إلاّ أنه على المدى البعيد، لابدّ وأن تقود التداعيات السياسيّة والإحساس المتراكم بالاستبداد إلى تضاؤل الفاعليّة، وإصابة العقل المسلم بالعقم والشلل.

من أجل ذلك أولى الرسول ﷺ هذه المسألة اهتماما كبيراً، وقدم لأبناء أمته جملة من المؤشرات في أحاديثه وأفعاله كانت أشبه بضمانات للعمل السياسيّ تحميه من الانجراف وراء الاستبداد، وتجاوز وجود الأمة وخيارها الحر.[4]

لقد كان الاستبداد السياسيّ وراء سقوط العديد من الدول والكيانات السياسيّة

[4] انظر: المرجع السابق، محور الأمة والسلطة.

في تاريخ الإسلام، وكأن الأمر يبدو للوهلة الأولى ألاّ علاقة أو ارتباط بين هذا السقوط المحدود والانهيار الحضاريّ الذي شهدته الأمة في العصور المتأخرة. ولكن التمعن في الظاهرة يقودنا إلى حقيقة أن تراكم الانكسارات السياسية يقود بالضرورة إلى تعطيل الطاقات والتأثير سلباً في مجرى الفعل الحضاري.

ودائماً كان هناك بين النمطين السياسيّ والحضاريّ نوعان من العوامل المؤثرة في التدهور والانهيار: نوع مستقل بمصائر الدول والكيانات، ونوع آخر يمضي لكي يأكل مقدرات الأمة الحضارية كما تأكل النار الهشيم.

إننا نجد المعطيات القرآنية في الجانب السياسي تلقي مسؤولية الانهيار على القيادات والقواعد (الجماهير) على السواء، نظراً للعلاقة المتداخلة بين الطرفين، ولأن القيادة لا تمارس فاعليتها الحسنة أو السيئة إلا بإقرار مكشوف أو ضمني من الجماهير.

على مستوى القيادة يحدثنا القرآن كيف أن ساعة السقوط تحين يوم يتسلم المسؤولية حفنة من المترفين الفسقة أو الإداريين الظلمة، أو المجرمين الطغاة، فيمارسون من موقع السلطة كل أسلوب من شأنه أن يؤول إلى إلحاق التفكك والدمار بالجماعة أو الأمة التي ارتضتهم قادة لها: الترف، الفسوق، الطغيان، الفوضى، الاستغلال، المكر، رفض الدعوات الجديدة، استخدام أقصى درجات القسوة والطيش لصد أتباعهم عن الانتماء إليها، واعتبار مبادئهم وتشريعاتهم القاصرة هي الصواب المطلق. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر:29).

والقرآن يصور هؤلاء الطواغيت أدوات بيد الله يسخرهم من حيث لا يدرون لإنزال عقابه العادل بطرفي الجريمة: السلطة التي تظلم، والقاعدة التي ترضى بالظلم: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا(16)﴾ (الإسراء)، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(123)﴾ (الأنعام)، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ(67)﴾ (الأحزاب)، ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(129)﴾ (الأنعام).

من أجل ذلك يدعو القرآن الشعوب لكي تتحرك وترد على الظلم وتفك الارتباط به حتى لو اقتضاها الأمر الهجرة إلى بيئات أخرى أكثر حرية وعدلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا(97) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً(98)﴾ (النساء).

ويحذر القرآن الكريم من أن "الفتنة" التي تتمخض عن ممارسة الطغيان وانحراف القيادات لا تنزل علي رؤوس السلطة ورموزها فحسب، وإنما قد تلحق بالمجتمع كله، بسبب من التداخل الصميم في الممارسة الاجتماعية بين الحاكم والمحكوم، ومن تحمل جماهير الناس نصيباً كبيراً من الفتنة، والنتائج المترتبة عليها بسبب سكوتها وإقرارها وعدم رفضها ومقاومتها: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُول إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(24) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(25)﴾ (الأنفال).

- **الفصام بين القيادتين الفكريّة والسياسيّة:** وامتداداً للاستبداد السياسيّ شهدت الأمة منذ فترات مبكرة فصاماً بين قيادتيها الفكريّة والسياسيّة.

"وإذا كانت غلبة الأعراب على جيش الفتح وإسقاط الخلافة الراشدة وإقامة ملك بني أمية في موضعها، السبب الأول للتغيير والانحراف - في مجرى التاريخ الإسلامي - فإن ما نتج عن هذا التغيير الظاهر الملموس من تغيير معنوي كان أشد خطراً وأبعد أثراً، ذلك هو الفصام بين القيادتين الفكريّة والسياسيّة والذي كان أساساً مهماً لما نجم بعد ذلك من عوامل الضعف والتدهور والتمزق وتراجع الطاقة العظيمة التي فجرها الإسلام في نفوس الناس والأمم.

"فبعد قيام سلطان العصبيّة والأثرة والقهر في نظام المجتمع الإسلامي، فإن القيادة الفكريّة الإسلاميّة الملتزمة المتمثلة في أرض الحجاز وحاضرة الخلافة الراشدة، لم تتقبل

التغيير الجديد وفكره وغاياته وهبت لمقاومته على أساس عقائديّ وفكريّ وليس على أساس قبليّ.

"وحين انهكت الثورات والحروب الأهلية الطاحنة لأكثر من قرن من الزمان أصحاب الفكر والالتزام الإسلامي الذين فشلوا في استقطاب جماهير الأمة التي سيطرت على عقليتها وتربيتها عقلية ومفاهيم القبلية والشعوبية والطائفية، اضطرت صفوفهم إلى التراجع والانطواء بعيداً عن القيادة السياسية التي أخذت في محاصرتهم ومحاولات إخضاعهم لمآربها، حتى كان نصيب كبار العلماء وعلى رأسهم الأئمة الأربعة، الإيذاء والنكال، ليموت الإمام أبو حنيفة في السجن (ت150 هـ/767 م) دون أن يقبل تولي القضاء لسلطة سياسية غير ملتزمة، وليضرب الإمام مالك (ت179 هـ/795 م) حتى تشل يده لما جهر به من فتوى تناقض مصالح السلطة، كما نال الإمام أحمد (ت241 هـ/855 م) الكثير من العذاب والأذى لمعارضته مخططات السلطة السياسية، وكان نصيب الإمام الشافعي (ت204هـ/820 م) الهرب من حاضرة السلطان في بغداد، بعد أن سيق إليها مكبلاً من اليمن لخوف السلطة من فكره ونشاطاته السياسية، حتى لجأ إلى مصر.

"لقد شكل هذا التمزق والفصام بين القيادة الفكرية الإسلامية، والقيادة السياسية الاجتماعية، الأساس لتراجع الطاقة المسلمة وتمزق النسيج المسلم.. وفتح الباب واسعاً أمام قوى التدهور والفساد والانحطاط. وأخذت طاقة دفع الإسلام تخبو تدريجياً وتتضاءل، ولم يبق لحضارة الإسلام وعطاء الأمة في العصور المتأخرة إلاّ بقايا طاقة معالم الإسلام ونور هدايته في النفوس، وتخلف الأمم من حولهم وغياب البديل الحضاري الذي يكشف عورتهم ويتهدد أصل كيانهم على الرغم مما اجتاح أرضهم من غزو البرابرة المغول والروم والصليبيين.

"وليس من الصعب أن يدرك القارئ التمزق والتدهور السياسي الذي أصاب جسد الأمة ووحدتها منذ سقوط دولة الخلافة، ولكن المهم إدراك الفرق بين طاقة الدفع الحضاري التي انبثقت بظهور الإسلام والوفرة المادية الناجمة عن التراكمات

والامتدادات التي كانت أثراً من آثار الدفع الإسلامي الأول والتي أفسح لها الطريق ضعف الأمم المحيطة وانحطاطها، وذلك على الرغم مما لحق الأمة الإسلامية من تدهور الكيان وضعف طاقة الدفع، لأن الأمر هنا هو أمر نسبي فما تزال في ذلك الوقت طاقة الدفع الإسلامي نسبيًا كبيرة، ولذلك من المهم ألاّ يخفى على الناظر ما تخفي التراكمات والمظاهر خلفها من حال مصادر طاقة الأمة وما أصاب هذه المصادر من اضمحلال وعطب، فإن هذه التيارات الكلية أمر لا يسهل ملاحظته بوضوح إلاّ على المدى الطويل حيث تتضح الآثار وتتساقط الواجهات ويتآكل التراكم وتتبدى التشوهات الفكريّة والاجتماعيّة جليّة واضحة مما نراه واضحاً في حال الأمة اليوم".[5]

- **طغيان القبلية والإقليميّة والعرقيّة على مفهوم الأمة:** أكد الإسلام ــ كما هو معروف - مفهوم الأمة، وجاء هذا التأكيد في أكثر من موضع في كتاب الله تعالى.[6] وكان عصر الرسالة سعياً موصولاً لتحقيق هذا المفهوم الذي استكمل أسبابه بإعلان "براءة" في العام التاسع للهجرة وتصفية الوجود الوثني.

وجاء الراشدون - رضي الله عنهم - لكي يمضوا خطوات واسعة أخرى في تعزيز هذا المفهوم ومده إلى أوسع الآفاق، حيث تحققت عالمية الدولة الإسلاميّة، وأصبح مفهوم الأمة ينطوي على كل الجماعات والشعوب التي انتمت إلى هذا الدين، بغض النظر عن ألوانها وأصولها القومية وبيئاتها الجغرافيّة. وقد أتاح هذا المفهوم بصيغته الواقعيّة فرصة فريدة لتلاقح الخبرات، وإغناء الحضارة الإسلاميّة بالمزيد من الخصب والعطاء.

ولكن ما لبثت النزعات التفكيكيّة أن أخذت تطل برأسها منذ بدايات مبكرة، ونشب صراع قاس ومرير بين تيارين هما تيار الإسلاميّة بمفهومها الوحدوي، وتيار العرقيّة أو القبليّة بمفهومها الانفصالي الضيق. وقد انعكس هذا في جملة حلقات خطيرة عبر التاريخ الإسلامي منذ عهوده المبكرة، من مثل الردة والفتنة والصراع الدامي بين عرب الشمال وعرب الجنوب (أو بين القيسيين واليمانيين) وصولاً إلى الحركة

---

[5] عبد الحميد أبو سليمان، **أزمة العقل المسلم** (فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 1994م)، ص47-50.

[6] انظر سورة البقرة: 128، 143، آل عمران: 104، 110، الأعراف: 181، الأنبياء: 92، المؤمنون: 52.

الشعوبية التي أعلنت الحرب المكشوفة أو المغطاة ضد كل ما هو عربي.

وما من ريب في أن هذا الصراع استنزف من الأمة والدولة الشيء الكثير، كما أنه مزق طاقات المسلمين وبعثرها، وأثر ـ بالتالي ـ على جهدها الحضاري على الرغم من تناميه المتواصل بعيداً عن سلبيات التفكك والتشرذم والصراع، فإنه تلقى في نهاية الأمر شيئاً من دخلها، على الأقل في تفتيت قدرات الأمة ومنعها من أن تصب في بؤرة الفعل الحضاريّ.

ولنتصور لو أن الدولة والأمة مضيا عبر القرون دون أن تعصف بهما فتن الانتماءات القبليّة أو العرقيّة أو البيئيّة المحدودة، كيف سيكون المردود الحضاريّ؟

من أجل ذلك حذر كتاب الله من هذا المصير وقال: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ..﴾ (الأنفال:46)، ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ..﴾ (النساء:59)، ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ..﴾ (آل عمران:152).

ومضى رسول الله ﷺ في الاتجاه نفسه منددًا بكل ما من شأنه الحاق الأذى بوحدة الجماعة أو الأمة، وعرقلتها عن تنفيذ مهمتها الاستخلافية الإيمانية في العالم.[7]

وظل الحال ماضيّاً بهذا الاتجاه حتى قيام الفتنة التي يرجع سببها الأساس إلى تغير القاعدة السياسية التي ارتكزت إليها القيادة والخلافة الإسلاميّة الراشدة "فبعد أن كان الأصحاب وجيش الأصحاب و"كوادر" الأصحاب هم قاعدة دولة الرسول ﷺ وقامت على أكتافهم دولة الخلافة الراشدة، بكل ما يمثله الأصحاب من نوعية وتوجه وإعداد ونضج وتربية، نجد أنه زحمة الأحداث وتدافعها وما واجهته الدولة الإسلامية من تحدي الإمبراطوريات الكبرى المعاصرة لها في فارس وبلاد الروم قد أفسح المجال واسعاً لتدفق رجال القبائل من الأعراب ـ على ما كانوا عليه في ذلك الوقت من عصبية وجهالة ـ من مضاربهم في أطراف البوادي للانضمام إلى جيش الفتح مع

---

7 انظر: عماد الدين خليل، وحسن الرزو، **دليل التاريخ والحضارة**، محور الأمة والسلطة، والفتن والفرقة والعصبية.

تقلص دور الأصحاب بسبب السن والاستشهاد. لقد مكن هذا في النهاية للأعراب من جيش الدولة بكل ما حملوه معهم إلى جانب معالم الإسلام العامة من المفاهيم القبلية والعصبيات والذين لم تخضع نفوسهم لما خضع له الأصحاب من تربية وتدريب وتوعية على مدى سني الدعوة والمعاناة، وعبر عقود بناء الدولة والمجتمع المسلم بقيادة رسول الله ﷺ وأوائل الخلفاء الراشدين.. ولذلك كله كان لأبدّ من أن تنشب الفتنة وأن تسقط الخلافة ليقوم مقامها سلطان القبلية والعصبية والاستئثار والاستبداد..".[8]

- **الظلم الاجتماعي**: إذا كان التفسير المادي للتاريخ قد أعطى الصراع الطبقي الدور الأساس في المتغيرات التاريخية الحاسمة، بما في ذلك قيام الحضارات وتدهورها وسقوطها، ووقع في أسر التفسير أحادي الجانب بإهماله العوامل الأخرى التي لا تقل أهمية، أو عدم منحها المساحة التي تستحقها في الفعل التاريخي، فإن مما لا ريب فيه أن الظلم الاجتماعي، وسوء توزيع الثروة، وتشرذم المجتمعات إلى أقليات تملك وتحكم وأكثريات تجوع وتمتهن، لهي من العوامل الخطيرة في تفتيت الأمم والجماعات، وتدهور الدول والحضارات وسقوطها.

ولقد حذر القرآن الكريم من هذا المصير ودعا إلى بناء مجتمع يحكمه العدل وتظلله الوحدة ويسوده التكافل.[9] وأكد الرسول ﷺ في العديد من الأحاديث أن العدل والتكافل هما من مقتضيات المجتمعات التي تؤمن بالله ورسوله وأن غيابهما ينذر بسوء المصير.[10]

ولقد شهد المجتمع المسلم في عصر الرسالة، وعبر مساحات واسعة من عصر الراشدين، تجربة فريدة يسودها العدل والتكافل، الأمر الذي أعان الأمة الناشئة — من بين عوامل أخرى - على التوحد والتمكن - بالتالي — من مجابهة التحديات وتحقيق

---

8 عبد الحميد أبو سليمان، **أزمة العقل المسلم**، ص46.

9 انظر: عماد الدين خليل، **مقال في العدل الاجتماعي**، ط2، القسم الثاني، ص33-66.

10 انظر: عماد الدين خليل، وحسن الرزو، **دليل التاريخ والحضارة**، محور العدل والتكافل والسلام الاجتماعي والظلم الاجتماعي.

جملة من الإنجازات التاريخية الخطيرة من مثل سحق حركة الردة، وتنفيذ الفتوحات الإسلامية، والتمكين للدولة الناشئة في الأرض، والإعانة على تأسيس شبكة الشروط التي هيأت للحضارة الإسلامية فرصتها الملائمة للتحقق والنمو.

لكن ذلك لم يطل كثيراً، إذ ما لبثت أن أطلت برأسها: بوادر الظلم، والتمزق الاجتماعي، وتشرذم الأمة إلى فئات وشرائح ليست سواء في موارد رزقها ومكانتها الاجتماعية. و لم يقتصر الأمر على سوء توزيع الثروة، وإنما مضى لكي يفرض على الطبقات الكادحة من المزارعين والحرفيين جملة من الضرائب الجائرة، اعتمدت في جبايتها أساليب قاسية لم يأذن بها الله ورسوله، قد نجد شواهد لها في كتاب **الخراج** الذي صنفه القاضي الفقيه أبو يوسف بأمر من الخليفة العباسي والذي أريد منه تشخيص الأدواء الاقتصاديّة وإيجاد العلاج المناسب لها في ضوء المعطيات والمقاصد الشرعيّة.

ليس هذا فحسب، بل إن التفتت الاجتماعي مضى باتجاهات أخرى لكي يفرق بين العربي وغير العربي من المنتمين لهذا الدين، بل بين العرب أنفسهم في ضوء انتماءاتهم القبلية، الأمر الذي مارس دوره الخطير في استنزاف قدرات الأمة منذ فترات مبكرة.

ولقد حاول عدد من قادة الأمة، خلفاء وأمراء، إصلاح الأوضاع المنحرفة، والعودة بالمجتمع المسلم إلى وحدته، وسياسته بالعدل والتكافل اللتين بدأ بهما سيرته الأولى. وشهد العصر الأموي زمن عمر بن عبدالعزيز (99 - 101 هـ) والعصر العباسي زمن نورالدين محمود بن عماد الدين زنكي سلطان مصر والشام (541 ـ 569 هـ)، محاولتين جادتين لتحقيق الهدف المذكور، إلاّ أن المساحة الأوسع كانت تفسح المجال لتزايد الظلم والتفتت الاجتماعي وغياب التكافل، وانتشار الشكوى والتذمر من سوء التوزيع، وتزايد الضرائب، وجور الجباة والحكام.

ولقد قدم لنا المؤرخون سيلاً من الروايات تؤكد هذا التوجه، وتفسر جانباً من أسباب تباطؤ الاندفاع الحضاري وعجز الأمة عن مواصلة الصعود والعطاء، فليس ثمة كالإحساس بالظلم، وغياب العدل عوناً على نزف الطاقات المبدعة وكفًّا لها عن العطاء.

ويكفي أن نتذكر أن العديد من الثورات والحروب الأهلية التي استنزفت الأمة إنما كان دافعها الأساس رفع الظلم وتحقيق العدل، والعودة بالحياة الإسلامية إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ـ الترف والتكاثر: من المتداول على ألسنة الناس في كل زمن ومكان المقولة المعروفة "الترف يزيل النعم"، بل إنه ــ إذا أردنا الحق ــ يزيل الملك والحضارة معاً بسبب من الدور المدمر الذي يمارسه في أكثر من اتجاه.

ولقد أولى القرآن الكريم والرسول الأمين ﷺ اهتماماً ملحوظاً بهذا العامل وأشارا إليه، وحذرا منه في مناسبات عديدة وصيغ شتى،[11] الأمر الذي يؤكد خطورة الترف على ثلاثية: الدولة، والأمة، والحضارة.

إن الترف ممارسة مدمرة سواء للجماعة كلها التي تسكت عليه، أو للمترفين أنفسهم الذين يعمي الثراء الفاحش بصائرهم ويطمس على أرواحهم، ويمحو كل إحساس أخلاقي أصيل في نفوسهم: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ(33) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ(34)﴾ (المؤمنون)، ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا(16)﴾ (الإسراء)، ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنْ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنْ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ(116) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(117)﴾ (هود).

وتبقى سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير تعمل عملها في حركة التاريخ وتتخذ من المترفين أداة تسوق بها القرى والدول والحضارات إلى مصائرها المحتومة: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ(11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا

[11] انظر: المرجع السابق، محور المال.

هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ(12) لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(14)﴾(الأنبياء).

ولقد وقف ابن خلدون في **مقدمته** طويلاً عند معضلة الترف، ولا نشك في أنه تأثر بمعطيات القرآن عنها، فضلاً عن دراساته ومشاهداته للدول التي قرأ عنها أو عاصرها. وقد عدّ ابن خلدون الترف حتمية ترتبط بعملية التحضر، بانتقال الجماعات البشرية من الفقر والبداوة والتنقل في الصحراء إلى الغنى والتحضر والاستقرار في الأمصار، وعالج المسألة من جانبيها الأخلاقي والاقتصادي، فبيّن في الأولى ما يؤول إليه الترف من تفكك في الأخلاق وركود في الهمة ينعكسان ـ بالضرورة ـ على مسيرة الحضارة ويأذنان بتوقف تدفقها الإبداعي، وبالتالي انحلالها ودمارها. وبين في الثانية ما يعنيه طغيان الترف في مجتمع ما من اختلال في التوازن بين الإنتاج والاستهلاك ومن تضخم للنزعة الاستهلاكية على حساب التنمية والعطاء، الأمر الذي ينعكس هو الآخر سلباً على التطور الحضاري العام.[12]

وما أكثر الدويلات الإسلامية التي كان الترف يكمن وراء تدهورها وسقوطها، وما أشد الحاجة لتفحص هذا الجانب المهم من تاريخنا في ضوء المعطيات القرآنية والنبوية وتحليلات ابن خلدون من أجل أن نضع أيدينا على الدور الذي مارسه ذلك التناقض الحاد بين فئات حاكمة تملك كل شيء تقريباً وبين أكثريات محكومة لا تكاد تملك شيئاً.

وبمجرد مقارنة أولية بين ما شهدته عصور الالتزام الإسلامي، سواء في زمن الرسالة والراشدين، أو في مراحل مختلفة من التاريخ الإسلامي (كعهد عمر بن عبدالعزيز 99 ـ 101 هـ ونورالدين محمود بن زنكي 541 ـ 569 هـ وعدد من خلفاء الأمة وسلاطينها وأمرائها) وما شهدته عصور التسيب من إغراءات الاقتناء والتكاثر والتطاول في البنيان والبذخ في المأكل والملبس، والمبالغة التي تصل حد الأساطير في حفلات الزواج[13] والمناسبات الاجتماعيّة المختلفة، وإنفاق المال العام بغير حساب

---

[12] انظر: عماد الدين خليل، **ابن خلدون إسلامياً** (بيروت: المكتب الإسلامي، ط2، 1985م)، ص58-65.

[13] انظر: على سبيل المثال زواج الخليفة العباسي المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل. حسن إبرهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي،** ج2، ص459-461. وزواج الخليفة العباسي المعتضد بقطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون. حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج3، ص456-458.

على الشعراء والمرتزقة والمتملقين ومهرجي الملوك ووعاظ السلاطين... إلخ.

بمجرد مقارنة سريعة بين الحالتين يتبين للمرء حجم الدور الذي لعبه الترف بأوجهه كافة قي إلحاق الأذى والدمار ببنيان الأمة وعرقلة نموها الحضاري.

ـ **التحلل الخلقي والسلوكي**: ترتبط الحالة الأخلاقية ومفردات السلوك أشد الارتباط بالوضع الحضاري، فهي تعينه على التماسك والنمو في بعدها الإيجابي وتقوده إلى التفكك والانهيار في بعدها السلبي.

وقد تبدو المسألة في ظاهرها أمراً فرديّاً، ولكنها في حقيقة الأمر تمس العلاقات العامة والبنية الاجتماعيّة في الصميم ووفق مستويات شتى تؤول في مجملها إلى إلحاق الدمار بالنشاط الحضاريّ.

فبدءاً بالممارسات المنحرفة التي تمس السلوك، كالجنس والفجور والانغماس في الملذات، وتفشي الخمر والميسر والغناء والرقص والفحش، وانتشار ظاهرة القيان والغلمان.. وانتهاءً بمنظومة القيم التي تمس العمل والسلوك كالغش والكذب والمنفعية والأثرة والكبر والرياء والغدر والنفاق والخيانة وشهادة الزور، وتضاؤل الإحساس بالمسؤولية، وغياب رقابة الضمير، والتدليس، وعدم الالتزام بالعهود وانعدام الأمانة.. إلخ.

عبر هذه المساحات الواسعة من الممارسات اللاأخلاقية يجد الفعل الحضاري أن فرصته للاستمرار والإبداع والتألق قد ضُيِّق عليها الخناق، وحلّت القيم والممارسات السلبية محل بدائلها الإيجابية، لكي ما تلبث ان تتكاثر بصيغ المتواليات الهندسية وتقود الحركة الحضارية إلى التباطؤ والانهيار.

ولقد أولى القرآن الكريم والسنة النبوية اهتماماً كبيراً لهذه المسألة، وتحدّثا عنها، وحذّرا من مغبتها في أماكن شتى، ومن زوايا مختلفة، وأكدا ضرورة الالتزام الخلقي وتكوين أخلاقية خاصة بالجماعة المؤمنة تنبثق من أعماق الفرد بقوة الإلزام الديني، ثم تمضي لكي تغطي شبكة العلاقات الاجتماعية من أقصاها إلى أقصاها.[14]

---

[14] انظر: عماد الدين خليل، وحسن الرزو، **دليل التاريخ والحضارة**، محور حسن الخلق، والمرأة، وسوء الخلق.

إن القيم الخلقية تمثل ولا ريب مراكز الثقل في حضارات الأمم، وشحنات الدفع في مسيراتها، وتكاد علاقتها المؤكدة بالنمو الحضاري تبدو طرديّة باستمرار على مستويي الكيف والكم.

فكلما التزمت جماعة ما بمزيد من القيم وسعت إلى صقلها وتأصيلها في أعماق البنية الاجتماعية، تمكنت من حماية وحدتها ومدّ عمرها الحضاري، وإبعاد شبح التدهور والسقوط. وكلما بدأت جماعة ما بالتخلي عن هذه الالتزامات واطراحها جانبا، وعدم السعي لبلورتها وتعميقها في الممارسة الاجتماعية، عرضت وحدتها للتفتت وآذنت نشاطها ومعطياتها الحضارية بسوء المصير.

إننا نرى اليوم كيف أن بقايا القيم الأخلاقية التي يتميز بها رجل "العالم المتقدم" ومجتمعاته من صدق وأمانة وتحمل للمسؤولية وشجاعة وإخلاص وصبر وتضحية، ومن رفض للكذب والغش والخيانة والجبن والجزع والأثرة، هي التي تؤدي دورها الواضح على المستوى المنفعي (البراغماتي) في تفوق تلك المجتمعات، مما يشير إلى مدى الثقل الواقعيّ لهذه القيم وارتباطها الأكيد بالممارسة الحضاريّة.

ولا جدال في أن القيم الخلقية التي تنبثق عن الرؤية الإيمانيّة والحس الديني وتكتسب موضوعيّة في ميدان العلاقات وعمقاً في ميدان الذات لا نجد عشر معشارها في الأخلاقيات الوضعية المبنية على الموقف المصلحي والتبرير الذرائعي، لأنها في الحالة الأخيرة ستفقد موضوعيتها وشموليتها وتقع في أسر التحيز والنسبية التي يرفضها الإسلام:

﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(8)﴾ (المائدة)، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ (الأنعام: 152).

لقد كان خليفة المسلمين الأول أبو بكر الصديق ﷺ واضح الرؤية عندما خاطب منتخبيه قائلاً: "إنه ما شاعت الفاحشة في قوم قط إلاّ ضربهم الله بالذل".

وعلى الرغم من أن المرء لا يستطيع أن يسلم بسهولة بكل المرويات التي تتحدث عن الظاهرة الأخلاقية في بعدها السلبي عبر تاريخنا الإسلامي، بسبب ما انطوت عليه

من مبالغة، فضلاً عن أنها وردت ـ بالدرجة الأولى ـ في كتب الأدب ك**الأغاني** لأبي الفرج الأصفهاني و**العقد الفريد** لابن عبد ربه و**المستطرف** للأبشيهي... إلخ. وهي مصادر يصعب التسليم بمصداقيتها على مستوى التحقيق التاريخي، كما سبق وأن نبه إليه ابن خلدون في **المقدمة**.[15] وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الذي يمكن قبوله من الروايات المتعلقة بالموضوع، يكفي لتأكيد الدور الواسع الذي مارسه العامل الأخلاقي والسلوكي، في عرقلة تنامي الحضارة الإسلامية، وسوقها ـ إلى جانب عوامل أخرى ـ إلى التآكل والانحطاط.

ولنأخذ على ذلك مثلاً من بين عشرات ومئات: انتشار الجواري والغناء والخمر الذي شغل الناس عن ذكر الله والجهاد في سبيله والتفرغ لمعالي الأمور. "لقد بدأ الفساد في العاصمة بغداد في قصور الخلفاء والأمراء أولاً، ثم في قصور الأغنياء عامة، حتى أصبح عملة سارية في العاصمة لا ينكره أغلب الناس سواء شاركوا فيه أم لم يكن لهم فيه نصيب. ولكن بقية الأرض الإسلامية لم تكن متأثرة بهذا الفساد المحلي في بادئ الأمر، لأنها كانت ما تزال تمارس الإسلام بالجدية التي يقتضيها الإيمان بدين الله. ثم أخذ الفساد يمتد من عاصمة الخلافة إلى عواصم الأقاليم بالعدوى، وتلك سنّة ربانية تجعل الفساد "يظهر" في الأرض حين يتقاعس الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما كان حادثاً في المجتمع الإسلامي: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(41)﴾ (الروم)، وحين لا يرجعون يظل الفساد ينتشر ويتأصل حتى يحدث الانهيار. وقد ظل الفساد ـ في أكثر من ميدان ـ ينتشر ويتأصل، ويأكل كل حين قطاعاً جديداً من المجتمع، حتى انهارت الدولة العباسية على يد التتار، كما انهارت الأندلس في الغرب على يد الصليبيين".[16]

ـ **الفساد الإداري**: وإذا كانت مهمة المؤسسات والنظم الإدارية تنظيم العلاقات العامة، وتقديم الخدمات، وتمكين الدولة من تسيير أمورها الأساسية في السياقات

---

15 انظر: عماد الدين خليل، **حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي** (الدوحة: دار الثقافة، 1986م)، ص54-65.

16 محمد قطب، **واقعنا المعاصر** (الجزائر: مكتبة رحاب، ط2، د.ت)، ص137-138.

المختلفة، وحماية الحق العام، وتوجيه طاقات الأمة للعمل والإنتاج، وتهيئة الظروف المناسبة للإبداع والدفاع عن الأرض والعرض والحياة، وضمان الحقوق الدينية والمدنية لرعاياها كافة، أدركنا كم سيكون الفساد الإداري معولاً هداماً في جسد الأمة، وعاملاً مؤثراً في صيرورتها الحضاريّة.

وما من ريب في أن النشاط الإداري يرتبط أشد الارتباط بالممارسات السياسية في إطارها الشامل، ويأخذ معها علاقة طردية، فكلما زادت القيادة ظلماً وطغياناً، أصيب الجهاز الإداري ـ الذي هو الأداة التنفيذية لسياسات الدولة ـ بالتفكك والاضطراب والعجز، وبالعكس. وهذا هو الذي دفع حكاماً في تاريخنا، كالراشدين وعمر بن عبدالعزيز وغيرهم، إلى منح اهتمامهم الجاد لهذا الجانب الأساسي في سياسات الأمم، ورأوا في صلاحه وتماسكه ضمانا للأداة التي تنفذ بها القيادة أهدافها الشاملة.[17]

وثمة صيغ شتى لا يكاد يحصيها عدّ للفساد الإداري، منها على سبيل المثال: وضع الرجل غير المناسب في المفاصل الحساسة لجهاز الدولة الإداري، وإبعاد أو إهمال العناصر الكفوءة، بدءاً من الخليفة أو السلطان أو الملك أو الأمير، وانتهاءً بموظفي الديوان، مروراً بالوزراء والحجاب وأرباب الدواوين، والولاة والعمال والجباة وقادة الجيش.. إلخ. ومنها بيع مناصب الدولة لمن يدفع أكثر، ومنحه ـ بذلك ـ الفرصة لكي يجمع أكثر بغض النظر عن سلامة الأساليب التي يعتمدها لتحقيق هدفه هذا، ومدى انسجامها مع الحقوق العامة للمواطنين. ومنها انتشار الرشوة والمصادرة، وخراب الذمم، وأثرة الموظفين وجشعهم واستغلالهم، وتحكم مراكز القوى في المؤسسات الإدارية.

ولن يجد المرء كبير صعوبة في وضع يده على مئات الشواهد التاريخية للممارسات الإدارية الفاسدة التي شهدتها القرون المتأخرة ـ خاصة ـ من تاريخ المسلمين، والخندق العميق الذي حفرته بين الدولة والأمة، وبين المؤسسة وجماهير الناس، فضلاً عن الفوضى والإرتباك وضياع المسؤولية داخل الحلقات الإدارية ذاتها، الأمر الذي مارس

---

17 انظر: عماد الدين خليل، **ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز**، فصل الإدارة والتخطيط؛ عماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل والتجربة**، فصل "في ميدان الإدارة والقضاء".

دوراً مؤثراً في وضع العراقيل أمام الجهد الحضاري وساقه - إلى جانب عوامل أخرى - إلى التباطؤ والشلل.

- **التمزق المذهبي:** مارس التمزق المذهبي وما تمخض عنه من صراع حاد على مستوى العقيدة والشريعة والسلوك، وعبر قنوات الجدل أو القتال، دوراً خطيراً في تفتيت قدرات الأمة واستنزافها، وإعاقتها عن مواصلة مهماتها الحضارية.

وبنظرة سريعة على كتب الفرق الإسلامية[18] يمكن أن نضع أيدينا على صورة مخيفة لتشظي الأمة المذهبي والعدد الأسطوري للفرق التي كانت الواحدة منها تتشرذم بدورها إلى فرق شتى، ويكفي أن نطالع في كتاب **الفرق بين الفرق** لعبدالقاهر البغدادي (ت 429هـ) ما يزيد على المائة فرقة شهدها تاريخ المسلمين حتى عصره.

و لم يقف الأمر عند حدود الجدل ولكنه تجاوزه في كثير من الأحيان صوب اعتماد القسر المذهبي، والعنف، ورفع السيف قبالة "الآخر" لمجرد اختلاف في الرأي أو تغاير في الموقف بالنسبة لهذه القضية أو تلك.

ويكفي أن نتذكر مسلسل الثورات الخارجية وما استنزفته من دماء الأمة وإمكاناتها العمرانية، ونتذكر معه الفتنة الحادة التي أثارها المعتزلة ضد الحنابلة بعد تبني السلطة العباسية للمذهب الاعتزالي منذ زمن المأمون، وصيغ القسر المذهبي، والاضطهاد والتصفية التي شهدها العصر العباسي الأول زمن المأمون والمعتصم والواثق (198-232 هـ/813-847 م).

ويمكن أن نتذكر - كذلك - مسلسل الفتن الطائفية بين السنة والشيعة في العصور العباسية التالية، تلك التي شهدتها أحياء بغداد وأسواقها بين الحين والحين، وذهب ضحيتها المئات والألوف فيما حدثنا عنه ابن الجوزي في **المنتظم** وغيره من المؤرخين.

لقد كانت الظاهرة الفرقية - بحق - واحدة من أكثر عوامل الإعاقة الحضاريّة

---

[18] انظر على سبيل المثال الحسن بن موسى النوبختي، **فرق الشيعة**؛ وعبد القاهر البغدادي، **الفرق بين الفرق**؛ وأبو الحسن الأشعري، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**.

خطورة في تاريخ المسلمين، فإن ما تمخض عنها من استنزاف فكري عبر سني الجدل الملح الذي لم يخلف وراءه سوى المزيد من العزلة والتشبث بالرؤية الأحادية، وما رافقها من اضطهاد وتصفية وقتال أتى على زهرة أبناء الأمة وقدراتها المادية، وما ترتب عليها من تفكك المجتمع الإسلامي إلى فصائل وشراذم متناحرة متباغضة.

هذا كله يبين لنا لماذا أولى الرسول ﷺ اهتمامًا بالغًا بهذه الحالة السلبية، وحذر منها، وضرب بصددها الأمثال من أجل أن يجنب أمته دخول الدوامة التي ساقتها إلى التشرذم في عشرات الفرق ومئاتها. كما أشار في حديثه المعروف إلى ذلك اليوم الذي ستفترق فيه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة ليس ثمة فيها إلاّ فرقة ناجية واحدة إذ قال فيما رواه أبو هريرة "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة".[19]

ولقد كان لهذا دلالته بغض النظر عن تاريخية الرقم الذي يمكن أن يحمل على محمل المجاز وتؤول دلالته على تشرذم الأمة إلى العديد من الطوائف والفرق، وأن التشبث بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والتزام الجماعة، ورفض الانزلاق باتجاه دعاة الفرقة هي الموقف الوحيد الذي يرضي الله ورسوله ﷺ لأنه في جوهره حماية لوحدة الأمة التي أريد لها أن تكون شاهدة على الأمم، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

وبمقدور المرء وهو يتابع النزيف العقلي والجسدي، والتفتت الاجتماعي الذي تمخض عن الظاهرة الفرقية، أن يخمن حجم الهدر في الطاقة الإسلامية، ذلك الذي شهدته الأمة عبر تاريخها الطويل، وكيف أن هذه الطاقة التي أهدرت كان يمكن أن تسهم إيجاباً في الإنجاز الحضاري، وإعانة الأمة على صعود المنحنى، وتنمية المعطيات الإبداعية، بدلاً من أن تتحول إلى سيف مصلت أجهز على القدرات الإسلامية، وصرفها عن مجالها الحقيقي، وكفها ـ في نهاية الأمر ـ عن العطاء والإبداع.

ـ **الغلو والتشدد:** وامتداداً للتمزق المذهبي، وكسبب له في الوقت نفسه، انتشر

---

19 البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص4-5.

الغلو والتشدد والنزوع إلى الجدل النظري العقيم، بدلاً من المرونة والسماحة والتيسير والانصراف إلى الفعل والسلوك، وأخذ بمرور الوقت يغطي جسد الأمة كالبثور السوداء، ومال العديد من المثقفين والعلماء والفلاسفة والدعاة وشرائح شتى من الفئات والجماعات، فضلاً عن الفرق والأحزاب، صوب هذا الاتجاه الذي ينذر بالشر والعقم والأذى، والذي طالما حذر منه القرآن الكريم والرسول ﷺ.[20]

إن الإسلام هو دين الحنيفية السمحاء واليسر والمرونة والجدل بالتي هي أحسن. والذي حدث هو أن هؤلاء أبحروا بالاتجاه المضاد فقادهم هذا إلى استنزاف قدراتهم العقلية في ساحات الجدل والكلام والمنطق والفلسفة، وصدهم عن توظيف طاقاتهم في سياقها الصحيح من خارطة النشاط الحضاري، فضلاً عن أنه عمّق الخنادق بين أبناء الأمة الواحدة، وقاد إلى "المذهبية" في أكثر صيغها ـ أحياناً ـ حدةً وتطرفاً.

"لقد وقع ـ في طور من أطوار التاريخ الإسلامي ـ أن احتكت الحياة الإسلاميّة الأصيلة المنبثقة من التصور الإسلامي الصحيح بألوان الحياة الأخرى التي وجدها الإسلام في البلاد المفتوحة، وفيما وراءها كذلك، ثم بالثقافات السائدة في تلك البلاد. واشتغل الناس في الرقعة الإسلامية ـ وقد خلت حياتهم من هموم الجهاد، واستسلموا لموجات الرخاء ـ بالفلسفة الإغريقيّة وبالمباحث اللاهوتيّة التي تجمعت حول المسيحيّة، والتي ترجمت إلى اللغة العربيّة. ونشأ عن هذا الاشتغال الذي لا يخلو من طابع الترف العقلي في عهد العباسيين وفي الأندلس أيضًا، انحرافات غريبة على التصور الإسلامي الأصيل الذي جاء ابتداءً لإنقاذ البشرية من مثل هذه الانحرافات وردها إلى التصور الإسلامي الإيجابي الواقعي الذي يدفع بالطاقة كلها إلى مجال الحياة للبناء والتعمير والارتفاع والتطهير ويصون الطاقة أن تنفق في الثرثرة، والإدراك البشري أن يطوح به في التيه بلا دليل ووجد جماعة من علماء المسلمين أن لابدّ من مواجهة آثار هذا الاحتكاك وهذا الانحراف، بردود وإيضاحات وجدل حول ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته وحول القضاء والقدر، وعمل الإنسان وجزائه والمعصية

[20] انظر: عماد الدين خليل، وحسن الرزو، **دليل التاريخ والحضارة**، محور الغلو والتشدد.

والتوبة، إلى آخر المباحث التي ثار حولها الجدل في تاريخ الفكر الإسلامي، كذلك وُجد من المفكرين المسلمين من فُتِن بالفلسفة الإغريقية، وبخاصة شروح فلسفة أرسطو - أو المعلم الأول كما كانوا يسمونه - وبالمباحث اللاهوتيّة (الميتافزيقيّة)، وظنوا أن "الفكر الإسلامي" لا يستكمل مظاهر نضوجه واكتماله، أو مظاهر أبهته وعظمته، إلاّ إذا ارتدى هذا الزي، زي التفلسف والفلسفة، وكانت له فيه مؤلفات.. فحاولوا إنشاء "فلسفة إسلامية" كالفلسفة الإغريقية.. و"علم كلام" على نسق المباحث اللاهوتية مبنية على منطق أرسطو ! ... وثمة ما يجب أن ننتبه إليه في هذا المجال، وهو أن أول ما وصل إلى العالم الإسلامي من مخلفات الفلسفة الإغريقية واللاهوت المسيحي، وكان له أثر في توجيه الجدل بين الفرق المختلفة وتلوينه، لم يكن سوى شروح متأخرة للفلسفة الإغريقية، منقولة نقلاً مشوهاً مضطرباً في لغة سقيمة، مما ينشأ عنه اضطراب كثير في نقل هذه الشروح. هذا إلى أن عملية التوفيق بين شروح الفلسفة الإغريقية والتصور الإسلامي كانت تنم عن سذاجة كبيرة وجهل بطبيعة الفلسفة الإغريقية وعدم استقامتها على نظام فكري واحد، وأساس منهجي واحد مما يخالف النظرة الإسلاميّة ومنابعها الأصيلة. فالفلسفة الإغريقية نشأت في وسط وثني مشحون بالأساطير، واستمدت جذورها من هذه الوثنية والأساطير، فمن العبث محاولة التوفيق بينها وبين التصور الإسلامي على أساس التوحيد المطلق..".[21]

- **انتشار الرؤية الإرجائية:** منذ زمن بعيد يمتد لقرون عديدة فكّت شرائح واسعة من المسلمين الارتباط بين الإيمان ومقتضياته العملية، وراحوا يتعاملون معه برؤية إرجائية تكتفي بالحد الأدنى، وتعزل العبادة - بمفهومها الشامل - عن فاعليتها في الأرض. فالعمل في منظورهم الخاطيء ليس داخلاً في مسمى الإيمان، فما دام المرء مؤمنا بالله ورسوله واليوم الآخر فهذا يكفي، وهو كفيل بإدخال صاحبه الجنة وإن لم يمارس عملاً مما تقتضيه مطالب هذا الدين، بل حتى لو اقترف المعاصي، أي أنهم

---

21 سيد قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته** (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1962م)، القسم الأول، ص9-12.

مارسوا عملية معكوسة، فبينما أراد الإيمان (بمفهومه الإسلامي) - ويجب التشديد على هذه الكلمة ـ أن يضعهم في بؤرة الفاعلية، ويجعلهم حاضرين في دائرة الممارسة والإبداع، أي "متحضرين"، اختاروا أن ينسحبوا شيئاً فشيئاً، وأن يتركوا الفاعلية لخصومهم في الداخل والخارج، وأن يتحولوا - بالتالي - إلى كمّ لا يملك القدرة على التنامي، ومن ثَمَّ لا يملك ثقله في مجابهة التحديات التي راحت تتداعى عليه من كل مكان حتى وصلت بالأمة إلى الهزيمة المؤكدة على أكثر من مستوى، فيما سبق وأن حذر منه رسول الله ﷺ في حديثه الشريف: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها"، فلما سأله الصحابة - رضوان الله عليهم -: أمن قلة نحن يومئذٍ يا رسول الله؟ كان جوابه: "إنكم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل. ولينزعن الله مهابتكم من صدور أعدائكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن". قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: "حب الدنيا وكراهية الموت".[22]

- **انتشار الصوفّية المنحرفة والبدع والخرافات:** تركت الرؤية الإرجائية، وغياب الاجتهاد والتجديد، وهيمنة التقليد والاتباع، وانتشار الترف والفساد الخلقي والاجتماعي بين الناس، وتزايد الاستبداد والقهر السياسي، فراغا كبيرا في عقل الأمة وروحها وسلوكها، جعلها تعاني مما يمكن تسميته بانخفاض الضغط الذي يسحب إليه - بحكم قوانين الحركة التاريخية - الرياح المدمرة التي تهب عليه من الداخل والخارج.

إذ ما لبثت أن طغت على الساحة حالات التوجه الصوفي الرهباني المنحرف عن سويته المعتدلة، المنسحب أكثر فأكثر من مواقع الفاعلية والحياة. وهبت على العقول والنفوس سموم الخرافة والبدعة والسحر والشعوذة والدجل والأوهام فيما سبق أن حذر منه كتاب الله وسنة رسوله،[23] من أجل ألا يستأثر بالحياة الإسلامية فيسوقها إلى مواقع الشذوذ والانحراف الذي تجاوز كل حدّ، حتى لحق العقيدة الإسلامية نفسها وجوهرها القائم على التوحيد فغطاه بدخن الحلول، وترهات التناسخ، وغبار وحدة

---

22 أخرجه أحمد وأبو داود.

23 انظر: عماد الدين خليل، وحسن الرزو، **دليل التاريخ والحضارة**، محور انتشار الجهل والخرافة والبدعة.

الوجود. وأصبحت الأذكار والأوراد والتسابيح والرقصات والخوارق والكرامات مركز الاستقطاب في عبادة المسلم وعمله، بدلاً من الجهاد والإعمار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

"نشأت الصوفية رد فعل للترف الذي غشى المجتمع العباسي، فإن المتطهرين من ذلك المجتمع الذين هالهم الفساد الذي يجري فيه من الترف والمجون، والانصراف عن ذكر الله وعن الآخرة، أرادوا أن ينجوا بأنفسهم فتسللوا من هذا المجتمع الفاسد ليعيشوا حياة نقية طاهرة مع الله. وبصرف النظر عما دخل الصوفية من أفكار ـ ودفعات ـ يهودية ونصرانية ومجوسية وهندوكية، فلسنا ننكر أن دافعها الأصلي كان هو اعتزال الفساد والخلوص إلى النقاء.. إلاّ أنها انطوت على سلبيّة وانعزاليّة ليست من الإسلام.. وغدت إلى عالم خاص من صنع الوجدان ينعم فيه الإنسان بمشاعر القرب من الله فيقعد عن العمل اكتفاءً بتلك المشاعر التي تختصر له الطريق. إن الأعمال وسيلة للقرب من الله، ولكن ما حاجة "الواصل" إلى الوسيلة وقد وصل بالفعل؟

"ومع الصوفية ينشأ التواكل بدلاً من التوكل الذي هو من صميم الإيمان، وهو طاقة إيجابية دافعة يقوم به المؤمن مع اتخاذ الأسباب. أما التواكل فهو صورة سلبية معطلة تتقاعس عن اتخاذ الأسباب متذرعة بالتوكل على الله. ولقد أفسد التواكل كثيراً من عقيدة القضاء والقدر وحولها من عقيدة إيجابية دافعة إلى عقيدة سلبية مخذلة، وإلى الرضا السلبي بالواقع وعدم محاولة تغيير سيئاته من مرض أو عجز أو فقر أو ذل أو ضيم بحجة أنه ما حدث إلاّ بقدر من الله ولو شاء الله غير ذلك لكان.

"ومع الصوفية كذلك ينشأ القعود عن تعمير الأرض، بحجة أن الدنيا ملعونة والمعول عليه هو الآخرة، وإن الإنسان حسبه في هذه الدنيا عيشة الكفاف لكي ينجو بروحه من التعلق بالدنيا ...الأمر الذي يؤدي إلى فقر مجموع الأمة، وبالتالي إلى الضعف الذي يحرك شهوة الأعداء الذين ينتظرون الفرصة السانحة للانقضاض.

"...وإلى جانب ذلك كله فحين يعتزل المتطهرون المجتمع ـ ليزكوا أرواحهم بعيداً عن الدنس ـ فمن يبقى في المجتمع؟ ومن يدير شئونه؟ ومن يتحرك فيه؟ أليست هذه

العزلة مشجعاً للفاسدين أن ينفردوا بالعمل دون تدخل ولا اعتراض، بينما كان الواجب الأول لأولئك المتطهرين أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ويأطروا الحاكم على الحق أطرًا، ويأصروه عليه أصرًا كما أمرهم الله ورسوله ﷺ.

"ولا شك أن هناك في تاريخ الصوفية من كان عاملاً بتعاليم الإسلام، مجاهداً في سبيل الله بماله ودمه، آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، ناشراً لدين الله في الأرض، فهؤلاء لا ينطبق عليهم حكم الصوفية المنحرفة وإنما هم في الحقيقة زهاد وأن ألحقوا بالصوفية.."[24].

- غياب الاجتهاد وسيادة التقليد والاتباع: منذ قرون عديدة غاب الاجتهاد الذي تتشكل به مفردات الحياة الإسلاميّة، وتتنزل مطالب الشريعة إلى قلب الواقع، فتعيد صياغته وفق مقاصدها الأساسيّة، وتمنح حضارة الإسلام، ليس تميزها فحسب، وإنما قدرتها على التواصل والتجدد والعطاء، وتضع الأمة المسلمة في الصدارة بين الأمم، كما كان الحال عبر القرون المبكرة، عندما كانت تملك القدرة على الكشف والابتكار والإضافة النوعية، والبحث عن الجديد في السياقات الحياتية والمعرفية كافة.

وبدلاً من ذلك كله سادت روح التقليد والاتباع، وانطفأ العقل المسلم، وتوقف الفقه عن صناعة الحياة، وها نحن في القرون المتأخرة قبالة ركود الأداء، وغياب القدرة على الكشف والابتكار، وسيل من الحواشي والذيول والتهميشات التي لا يجد أصحابها في أنفسهم القدرة، أو الثقة، لتجاوز التعلق بمعطيات السابقين، وأن يقولوا ما عندهم ابتداءً، كما فعل الآباء والأجداد زمن تألقهم الحضاري.

ولطالما دعا القرآن الكريم ورسول الله ﷺ، في حشود من الآيات[25] والأحاديث،[26] إلى ضرورة العمل والإضافة والاجتهاد والإبداع والإتقان والإحسان، وإلى عدم الالتفات إلى الوراء، إذا اقتضى الأمر، من أجل الاستجابة لمطالب اللحظة التاريخية،

---

[24] محمد قطب، **واقعنا المعاصر**، ص139-150.

[25] وردت لفظة "العمل" بتصريفاتها المختلفة في القرآن الكريم فيما يقارب الثلاثمائة والستين مرة. انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** (القاهرة: دار الكتب العربية، 1964هـ)، ص483-488.

[26] انظر: عماد الدين خليل، وحسن الرزو، **دليل التاريخ والحضارة**، محور العمل والإعمار.

والإصغاء لنداءات المستقبل ومتغيراته: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(134)﴾ (البقرة)، ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ(22)﴾ (الزخرف).

- **غياب العلم وانتشار الجهل**: ويرتبط غياب العلم الجاد وانتشار الجهل بخمود العقل المسلم، وانطفاء شعلة الاجتهاد، وتوقف الفقه عن صناعة الحياة.

وقد ناقشنا بعض جوانب هذه المعادلة في سياقات أخرى من عوامل الانهيار الحضاري، ونريد أن نقف - لحظات - عند مسألة غياب العلم وانتشار الجهل بوصفه واحداً من أشد معوقات الفعل الحضاري خطورة وتأثيرا.

ولقد كانت القرون الأولى منذ فجرتاريخ الإسلام انعكاسًا أمينًا لتأكيدات القرآن الكريم والسنة النبوية على تحفيز النشاط العلمي وتضييق الخناق على الجهل، ولهذا شهدت تلك المرحلة المبكرة تناميًا في الكشوف والخبرات العلمية، وانحسارًا للجهل والأمية، الأمر الذي بلغ قمة منحناه في القرن الرابع الهجري حيث ما لبثت عوامل السلب أن ساقت الحالة إلى التعثر والانكماش والضمور، وعودة الجهل بصيغه وأنماطه كافة لكي يحتل مساحات واسعة من الحياة الإسلامية، ويؤثر سلباً على صيرورة الحضارة وتناميها.

ولطالما حذر الرسول ﷺ في جملة من أحاديثه من تفشي الجهل، وربط ذلك بانحلال الأمم وتدهورها، وأدرك بنظره الثاقب العلاقة الوثيقة بين الجهل والسقوط الحضاري.[27]

وتحدثنا المرويات التاريخية للعصور المتأخرة كيف عبر "الجهل" عن نفسه بصيغ شتى في حياة المسلمين، بعد إذ تضاءل دور العلم والعلماء وفسح المجال للجهل والجهلاء لكي يمسكوا بمفاصل الحياة الإسلامية، ويتحكموا بالعقل المسلم، وينفثوا من خلال هذا وذاك دخلهم وخرافاتهم ومعطياتهم المناقضة لروح العلم ومناهجه ابتداءً.

ولعل ابن خلدون يُعَدّ من أكثر المؤرخين وقوفاً عند هذه الظاهرة بسبب من

27 المرجع السابق، محور الجهل والخرافة والبدعة.

اهتمامه بقوانين العمران البشري، وبحث في عوامل ازدهاره وضموره. وهو يناقش في الباب السادس من **مقدمته** والذي يتناول "العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وما يعرض في ذلك كله من الأحوال"، العديد من المسائل المتعلقة بالموضوع من مثل: "إن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة"،[28] و"إبطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها"،[29] و"أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم"[30].. وغيرها من التقاليد التي طغت على الحياة العقلية في العصور المتأخرة وساقتها إلى مزيد من التحجر والجمود.

ـ **الصراع بين الثنائيات**: ليس هناك دين قدر على تحقيق التصالح والوفاق بين كل الثنائيات التي تنطوي عليها الحياة والفكر والوجود كما فعله الإسلام. لقد أزال كل ما من شأنه أن يقف حائلاً بينها والتوحد والتوافق، وأعطى بذلك الفرصة لتصعيد وتنامي الجهد الحضاري وهو يجد نفسه قبالة لَمٍّ لأقطاب الفاعلية، وتوحد في المسير والمصير.

وعلى العكس من هذا ما حدث في العديد من المذاهب والخبرات والأديان الوضعية والمحرفة حيث وضعت جل الثنائيات في حالة تقاتل أو تضاد، وأغري كل بالطرف الآخر، أو ما أسموه أحيانا بالنقيض لكي ما يلبث أن يشتعل الصراع وتهدر عبره طاقات وقدرات كان بمقدورها أن تدفع الفعل الحضاري أكثر فأكثر صوب التنامي والعطاء.

ويكفي أن نتذكر بعض نماذج هذه الثنائيات وتصالحها تحت مظلة الإسلام: الظاهر والباطن، الحضور والغياب، المادة والروح، القدر والاختيار، الضرورة والجمال، الطبيعة وما وراء الطبيعة، التراب والحركة، الوحدة والتنوع، الأخلاقيّة والمنفعيّة، الفرديّة والجماعيّة، العدل والحريّة، الوحي والتجريب، الدنيا والآخرة، الفناء والخلود.

ويمكن أن نضيف إليها هنا ثنائيات أخرى من مثل: الدين والدولة، الذات

---

[28] **مقدمة** ابن خلدون، ج3، ص990-991.

[29] المرجع السابق، ج4، ص1207.

[30] المرجع السابق، ج4، 1232.

والموضوع، الفكر والواقع، المادية والمثالية، الوسائل والمقاصد، الثابت والمتغير، القديم والجديد، الحق والقوة، النقل والعقل، والاجتهاد والتقليد.

وبسبب من اختراق الفلسفة اليونانية للفكر الإسلامي من جهة، وحدوث بعض التأثيرات المسيحية المحرفة من جهة ثانية، وتلقي معطيات أخرى من الحضارات الفارسية والهندية والصينية من جهة ثالثة، وضعت الحواجز بين العديد من هذه الثنائيات، وأرغمت على تجاوز حالة الوفاق إلى الجدل والاختلاف والصراع.

وهكذا - ومن حيث لم يرد ابتداءً لهذه الأمة - أصبحت المادة عدوة للروح، والقدر نقيضاً للاختيار، والضرورة معارضة للجمال، والطبيعة خصماً للميتافيزيقيا، والنقل ضد العقل، والاجتهاد ضد التقليد... إلخ.

ولحسن الحظ فإن هذا كله لم يكن سوى استثناءات في عقل الأمة وسلوكها لم يتجاوز حلقات بعض المشتغلين بالفلسفة والمنطق والكلام والتصوف ومقارنة الأديان، وعدد من الفقهاء والمحدثين. ومع ذلك فإنه أشعل العديد من الحرائق هنا وهناك، وعمّق الخنادق بين أبناء الأمة الواحدة وصرف جانباً كبيراً من طاقاتها وقدراتها فيما كان يمكن أن يصب في دائرة الإنجاز الحضاري فيزيده عطاءً وخصباً. ولنتذكر - على سبيل المثال لا الحصر - ذلك الصراع الحاد والفتن القاسية التي حدثت بين المعتزلة والحنابلة في المشرق، والفلاسفة والمتصوفة في المغرب، فيما استنزف من قدرات الأمة الشيء الكثير. وغير هاتين الحالتين الكثير من حلقات الصراع المحزنة التي شهدها التاريخ الإسلامي عبر مجراه الطويل.

- **فوضى التعامل مع خبرات "الآخر"**: وامتداداً لهذا يمكن أن نلحظ قدراً من التأرجح والقلق وعدم التخطيط في التعامل مع الثقافات والحضارات غير الإسلامية، تلك التي تفاعل معها المسلمون بعد إذ وجدوا أنفسهم إزاءها وجهاً لوجه.

ولحسن الحظ - ها هنا أيضاً - يبدو أن المساحة الأوسع من التعامل كانت منضبطة بمعايير إسلامية أصيلة فلم تقبل من الآخر إلاّ ما ينسجم مع هذه المعايير التي يقف

التوحيد في قمتها ولا ريب.

ومع ذلك فقد حدث تقبل لبعض الأجسام والقيم الغربية التي اقتبست بفعل التراجم والاحتكاك المباشر عن الآخرين، دونما قدر كاف من التفحص والاختيار، الأمر الذي اخترق صيرورة الحضارة الإسلاميّة وتوحدها ببعض المعطيات المناقضة ـ بدرجة أو أخرى ـ لنبض هذا الدين ومقاصد شريعته، وأثر سلباً على مسيرتها في نهاية الأمر.

ومن جهة أخرى فإن رفض بعض الشرائح الإسلامية المتشددة التعامل مع خبرات الآخر وقبول العناصر الإيجابيّة في معطياته واتخاذ موقف مقفل تجاه الثقافات المحلية السابقة على الإسلام والحضارات المحيطة المعاصرة لظهوره، هذا الموقف لم يقل سوءاً عن سابقه من حيث إنه ضيّع على الحضارة الإسلاميّة فرصة أكثر غنىً وعطاءً للتلاقح والتبادل فيما يمكن أن يعينها أكثر على العطاء والإبداع.

ولكن ـ ولحسن الحظ كذلك ـ فان هذه الشرائح لا تمثل سوى مساحات ضيقة في جسد الأمة، قبالة خط أكثر عمقاً وامتداداً، اختار مبدأ الإفادة من خبرات الآخر إذا لم تتعارض مع ثوابت هذا الدين، ذلك الخط الذي بدأه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ بقبوله بعض أنظمة الفرس والروم وخبراتهما الإدارية والمالية والعسكرية، واستمر فيما بعد لكي يغطي مساحات واسعة من أنشطة الحضارة الإسلامية التي تلقت عن الآخرين الكثير من مفرداتها دون أن يلحق ذلك بشخصيتها المتفردة أي أذى أو تحريف.

ـ **تضاؤل القدرة على توظيف المكان:** أشرنا فيما سبق إلى أن القرآن الكريم أراد أن يضعنا في قلب العالم، ودعانا في عشرات المواضع ومئاتها إلى السير في الأرض واكتشاف سننها وطاقاتها، من أجل توظيفها لمهمة المسلم العمرانيّة في هذا العالم، وأنه ـ أي القرآن الكريم ـ توج ذلك كله بسورة كاملة تحمل اسم سورة الحديد وترفع في إحدى آياتها خطابا واضحا لا غموض فيه بخصوص استخدام الحديد أداةً

للتقدم الحضاري السلمي من جهة، والتفوق التقني العسكري القدير على حماية الوجود الإيماني في العالم من جهة أخرى.

وطالما كانت القيادات والنخب الإسلاميّة على وعي بهذا الخطاب القرآني، وعرفت كيف تحسن التعامل مع "المكان" سواء على مستوى البحث العلمي (من قبل العلماء) أو التنفيذ الواقعي (من قبل الساسة)، كانت الحضارة الإسلامية قديرة على التفاعل مع كتلة العالم وتوظيفها في تنمية هذه الحضارة وحماية منجزاتها من التآكل، ومقاصدها الكبرى من الانتقاص والعدوان.

وهذا ما شهدته الحضارة الإسلامية عبر قرون الازدهار والتفوق. ولكن — وبمرور الوقت ـ ارتخت الأيدي المسلمة عن الإمساك بالكتلة، والعقل المسلم عن التنقيب في سننها، ومال المسلمون إلى الكسل والقعود، وفكوّا ارتباطهم بالأرض، وعجزوا عن الاستجابة لتحديات المكان، الأمر الذي قادهم إلى التخلف العلميّ في سياقيه: الصرف والتطبيقي، في حين أنه مكّن لخصومهم منهم، وساق وجودهم الحضاريّ إلى التآكل والخمود، وتحولوا بمرور الوقت إلى عالة تستجدي من الغرب المتفوق فتات ثماره المترتبة على حسن توظيفه للمكان، وكشفه المتواصل عن أسرار الكتلة ونواميسها التي أودعها الله سبحانه فيها، وجعلها ـ بعدله الذي لا يحابي ولا يداجي — عطاءً غير محظور لكل من يعرف كيف ينتزع السر، ويُعمل عقله ويده في تحويله إلى ما ينفع الناس ويدفع عنهم: ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا(20)﴾ (الإسراء).

ـ **تضاؤل القدرة على توظيف الزمن:** وبموازاة ذلك تضاءلت — بمرور الوقت — قدرة المسلمين على توظيف الزمن والإفادة منه في تطوير وإغناء معطياتهم الحضارية.

والصيرورة الحضارية كما هو معروف، هي حصيلة لقاء الإنسان بالزمن والمكان، أو تسليط القدرة البشرية على حيز من المكان عبر فترة زمنية محددة. فإذا تم التساهل مع أحد هذه الأقطاب الثلاثة، قاد ذلك إلى عرقلة الفعل الحضاري وتباطؤه.

ها هنا، بخصوص توظيف الزمن، أكد كتاب الله تعالى ـ كما سبق وأن ألمحنا ـ إلى ضرورة المسارعة والسبق، ووصف المؤمنين الجادين بأنهم ﴿يسارعون في الخيرات﴾ وأنهم ﴿لها سابقون﴾. وعلمنا رسول الله ﷺ أن على المسلم الإفادة من عامل الزمن لتنفيذ مهمته العمرانية في العالم، وأن عليه أن يواصل السعي والكدح حتى لحظة النفخ في الصور، وإذا قامت الساعة وفي يد أحدنا فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فإن له بذلك أجرًا.[31]

.بمرور الوقت فقد المسلم إحساسه بالزمن، وأسلم نفسه للتراخي والكسل، فراحت هذه الفرصة النادرة تتفلت من بين يديه، فلم تجد معطياته الحضارية المهماز الذي يحفزها على المضي في الطريق حتى النهاية، وأصبح مرور الأيام والسنين والعقود والقرون، بل الحقب التاريخية لا يكاد يضيف شيئاً ذا غناء للخبرة الحضارية للمسلم، في الوقت الذي تنبه الآخر إلى قيمة الزمن وراح يسابق الأيام والسنين في تقديم المزيد كماً ونوعاً. وكانت النتيجة هذا الخندق العميق الذي يفصلنا عن التفوق الغربي، على الأقل في ميادين العلوم الصرفة والتطبيقية، وراحت تتردد على ألسنة الكتاب والمعلمين مقولة إننا مسبوقون بما لا يقل عن قرنين من الزمن، وأن محاولة اللحاق بالخصم تكاد تصبح مستحيلة بسبب هذا الحاجز الزمني الذي ينطوي على ألف إضافة وإضافة لحضارة الآخر حيث ظللنا نحن في مواقعنا من الزمن والمكان لا نكاد نبرحها إلاّ قليلا.

ـ **أخطاء القيادات الإسلامية المتأخرة:** وثمة أخيراً ـ وليس آخراً ـ الخطأ الذي لا يقل خطورة عن العوامل السالفة. والخطأ ـ كما يقول السياسي الفرنسي تاليران ـ "أكبر من الجريمة"، ذلك الذي مارسته القيادتان المتأخرتان في تاريخنا: المماليك والعثمانيون. فهما، على دورهما المؤكد في مجابهة الخصم وملاحقته، أو التصدي لهجماته المضادة، أهملتا التصنيع بشكل ملحوظ، ولم تستجيبا بالقدر المطلوب لتحديات التكنولوجيا الغربية، وبخاصة تكنولوجيا التسليح، وراح الفارق يتزايد بمرور

31 ذكره علي بن عبد العزيز في **المنتخب** بإسناد حسن عن أنس رضي الله عنه. انظر: بدر الدين العيني، **عمدة القاري في شرح صحيح البخاري**، باب الحرث والزراعة.

الوقت بين عالم الإسلام المتخلف والغرب المتفوق، بحيث أصبح تخطيه أو عبوره في القرن الأخير بحاجة إلى معجزة تخرق قوانين الحركة التاريخية وسننها، وتصنع المستحيل. في الوقت الذي كان كتاب الله سبحانه قد دعانا للالتحام بالعالم واستخراج طاقاته وكنوزه وتوظيفها لحماية الجماعة المؤمنة في العالم، فيما أشرنا إليه قبل قليل.

ومن عجب أن العثمانيين لم يتعلموا من التاريخ! فلقد فاجأوا المماليك في معركة مرج دابق قرب حلب (عام 922 هـ/1516 م) بمدفعيتهم، ولم يكن بمقدور سيوف المماليك التفوق على القذائف والنار فهزموا شر هزيمة وطويت بعد قليل صفحتهم من الوجود.

ها هم العثمانيون بعد ثلاثة قرون أو أقل يقعون في الفخ نفسه، فيجدون أنفسهم فجأة، بمدفعيتهم العتيقة، وسلاحهم المتخلف، ونظمهم العسكرية البالية، قبالة تفوق بريطانيا وفرنسا وروسيا، بسلاحها البري المتطور، وقطعاتها البحرية المتقدمة، وفيما بعد، غطاءها الجوي المهيمن ودباباتها التي لا يوقفها شيء، ونظمها العسكرية المدهشة، وقدرتها المذهلة على التحرك الميداني السريع، فما لبثوا أن أذعنوا للقوة والتنظيم، وأعطوا من أنفسهم الدنية عبر سلسلة متواصلة من الهزائم، على الرغم من المقاومة البشرية والفدائية التي لم يشهد التاريخ لها مثيلاً، والنفس الجهادي الموغل في تكوين المقاتل العثماني. لكن هذا كله لا يمكن أن يصمد طويلاً إزاء الفارق الكبير في التسليح والتنظيم. ومرة أخرى فإن الإيمان والميراث النبوي في العالم لن يحميه إلاّ الحديد كما تؤكده سورة الحديد.

وقد يقول قائل إن العثمانيين أنفسهم، زمن مجدهم السياسي، كانوا قد أمسكوا بزمام الحركة التاريخية بقدراتهم العسكرية، وكانت معجزة فتح القسطنطينية (عام 857 هـ/1453م) على يد السلطان المجاهد محمد الفاتح، صفحة مشرقة في تاريخ بني عثمان.

والجواب، هو أنهم لهذا السبب حققوا مجدهم السياسي ذاك، وطووا في زمن قياسي نصف أوروبا ودقوا أبواب فيينا. ولأن محمد الفاتح عرف كيف يوظف قدراته الهندسية العسكرية في البر والبحر، تمكن من تحقيق المعجزة التي تراجع عنها خلفاء بني

أمية وبني العباس قبل قرون وقرون. لكن الذي حدث بعد عصر التألق ذاك، أن العثمانيين لم يفتحوا أعينهم جيداً على ما يجري في الورش والمصانع العسكرية الأوروبية، ولا ما يدرس في معاهدها وأكاديمياتها الحربية.

وقد يكون العثمانيون على إدراك لهذه الحقائق لكنهم لم يحاولوا توظيفها في أن يتحركوا هم أيضًا وبالسرعة المطلوبة لتدارك الأمر والتحقق بالتسليح والتنظيم والخبرات التقنية والميدانية للحاق بالخصم، وعدم منحه الفرصة للتفوق الذي راح يتزايد بحساب المتواليات الهندسيّة التي جعلت ـ بمرور الوقت ـ تجاوز الهوة أمراً مستحيلاً، ومكّنت خصوم الأمة الإسلامية التقليديين بحكم الأمر الواقع ومنطق التفوق بالقوة، من تدمير الجدار العثماني الذي ظل يحميها لعدة قرون، ومن تسمية الدولة الفاتحة التي دوخت أوروبا بالرجل المريض، ومن إرغام الخليفة العثماني على مغادرة مركزه الذي كان يدير منه مقدرات العالم فأصبح بعده وكراً لعملاء الغرب من الملاحدة والماسونيين والصليبيين واليهود.

وبهذا كله أرغمت الحضارة الإسلامية على تلقي المزيد من الضربات، وزحزحت عن مواقعها، ومُحي من الوجود العديد من مفرداتها ولم يبق منها بمرور الوقت سوى الخرائب والأطلال التي لم تنج هي الأخرى من مدافع الاتحاديين والعلمانيين وإصرارهم المسبق على فكّ الارتباط بين الأمة التركية وبين أصولها الحضاريّة.

- **العوامل الخارجيّة:** ومن خارج الجغرافيا الإسلامية هبت أعاصير أخرى لا تقل ضراوةً وعنفاً، لكنها ما كانت لتؤدي مهمتها في إضعاف واستنزاف وعرقلة الحضارة الإسلاميّة لو أن الأمة امتلكت الحد الأدنى من مقتضيات الاستمراريّة التي أكد عليها الإسلام ودعا إلى التحقق بها صباح مساء.

لقد كان على عالم الإسلام أن يصارع الغزاة الخارجيين المحملين بكل حيثيات الغزو، وأحياناً التخلف، بدءاً بتجاوز المطالب الأخلاقيّة والإنسانيّة التي يعرفها المسلم جيداً ويتشبث بها في لحظات الصراع، مروراً باستنزاف الخصم وتدمير ماكينته الحضاريّة، وانتهاءً باستخدام السلاح الأكثر فاعلية لسحقه وتصفيته.

كان على عالم الإسلام مصارعة الغزاة لمدى يقرب من الألف عام. كانت الهجمات الخارجيّة الشرسة تضربه خلالها الواحدة تلو الأخرى، دون أن تترك له فرصة لالتقاط الأنفاس وإعادة ترتيب أوضاعه وقدراته، بما يمكنه من حماية الأرض والذات. ولقد استنزف هذا من الأمة المسلمة الشيء الكثير وأعان عوامل الشد والتخلف والإعاقة على أن تزداد فاعليةً وامتداداً على حساب عوامل التقدم والإبداع والصعود.

فمنذ أخريات القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) رمت أوروبا بثقلها تحت مظلة الحروب الصليبية التي استغرقت قرنين من الزمن، ثم ما لبثت الهجمات المغولية أن لحقت بها لكي ترمي بثقل آسيا الوسطى ومنغوليا، بكل عنفه وقسوته وبربريته، عالم الإسلام على مدى يقرب من القرن، وتتابعت من بعدهما الغزوات: حركة الاسترداد الإسباني (الريكوتكويستا) التي نفذت - بعد انتصارها - واحدة من أبشع عمليات الاغتيال الدينيّ والفكريّ والجسديّ والحضاريّ في التاريخ. لكي ما تلبث أن تعقبها حركة الالتفاف الإسباني - البرتغالي التي استغرقت حوالي ثلاثة قرون، فهجمة الاستعمار القديم والتبشير التي مارست دورها المدمر فيما يقرب من القرنين، وصولاً إلى الاستعمار الجديد (الإمبريالية) بجناحيه الرأسمالي والشيوعي، وظهيريه الصهيوني والصليبي.

ولقد سبق وأن قدمنا بعض التأشيرات بخصوص هذه الهجمات، فليس ثمة مبرر للتكرار. والمهم - بقدر ما يتعلق الأمر بانهيار الحضارة الإسلامية ـ هو أن هذه الهجمات التي وجدت بكل تأكيد البيئة المناسبة داخل الأرض الإسلامية، فيما سبق وأن سماه مالك بن نبي "القابلية للاستعمار"، وفيما يمكن توسيع نطاقه وتسميته "القابلية للانهيار الحضاري" التي استعرضنا عواملها الأساسية، هذه الهجمات ساعدت إلى حد كبير على إعاقة صيرورة الحضارة الإسلامية، والمضي بها قدما صوب التباطؤ والتفكك والانهيار، بما استنزفته من طاقات الأمة عبر صراعها المرير من جهة، وبما تعمدت أن تنفذه من خطط مرسومة - ابتداءً - لعرقلة مسيرة الحضارة الإسلامية وتدمير بنيتها في هذا الجانب أو ذاك من جهة أخرى.

وعلى سبيل المثال، فإن الحروب الصليبية استنزفت قدرات الأمة، في البيئات الشاميّة والجزريّة والفلسطينيّة والمصريّة، على المستويات البشرية والاقتصاديّة، والحضاريّة في نهاية الأمر، والهجوم المغولي الكاسح أباد مئات الآلاف من المسلمين، وألحق الدمار بالمئات من مدنهم، ودفع الألوف من علمائهم إلى الهجرة، وأصاب مسيرتهم الحضارية بتلف كبير.

وحركة الاسترداد الإسباني ذبحت أمة بكاملها يقدر تعدادها بمليونين وأربعمائة ألف مسلم، وأحرقت تراثها الذي يبلغ مئات الآلاف من المصنفات التي لم يبق منها في نهاية الأمر سوى ألفين.

ومحاولات الالتفاف الإسباني ـ البرتغالي استنزفت اقتصاديات الدول والبيئات الإسلاميّة التي هيمنت عليها وحولتها لصالح الإسبان والبرتغاليين الذين اكتشفوا طريقًا جديدًا للتجارة العالمية أصاب من النشاط التجاري الإسلامي مقتلاً وساقه إلى مواقع الشلل والجمود.

والاستعمار القديم، الذي انطلق أساسًا لاستنزاف موارد الشعوب المستضعفة، نفذ كل ما من شأنه إعاقة هذه الشعوب عن النهوض الحضاري، والإبقاء عليها في دائرة التخلف، بتدمير مرتكزاتها العمرانية، على الطريقة الفرنسية والإيطالية، أو بعدم إعانتها على التقدم العمراني، على الطريقة الإنكليزية.

ثم جاء الاستعمار الجديد لكي يمسخ هويّة الأمة الحضاريّة، ويبذل جهوداً متواصلة لاحتوائها وإرغامها على الاندماج في كيان الحضارة الغربية الغالبة.

ومرة أخرى، فإن هذه الهجمات جميعاً ما كان بمقدورها أن تفعل فعلها سلباً في مجرى الحضارة الإسلامية لو كان المسلمون أنفسهم قد تحصنوا بقيم البقاء والاستمرار. ولكنهم ـ بفعلهم الخاص في السياقات التي تحدثنا عنها ـ فتحوا على أنفسهم الثغرات التي تسلّل منها الخصوم لكي يصيبوا منهم ومن حضارتهم مقتلاً فتؤول ـ بانكسارات الداخل وضغوط الخارج ـ إلى التيبس والذبول.